الفصل الحادى عشر
العواقب الانسانية للتصحر

تأثير التصحر على الانسان :

التصحر فى جوهره مشكلة انسانية وأهم مظهر لها يكمن فى تأثيرها على الانسان نفسه : على الفرد أو العائله أو المجتمع أو الشعوب . فالتدهور البيئى والاجهاد البيولوجى والفيزيقى التى اشير اليها بأنها زحف صحراوى فى مختلف نظم المعيشة للأراضى الجافة ، لها ما يقابلها مباشرة وما يناظرها من الجوانب الفيزيقية والعاطفية والاقتصادية والعواقب الاجتماعية للانسان .

وليس وضع الانسان بأحسن من وضع الاحوال البيئية . فتأثير الزحف الصحراوى على الانسان قد أبرز فى الانسان تعرضا للتأثير لا يقل مداه عما تتعرض له البيئة الطبيعية من تدهور متزايد ، تأتى فوقه الاحداث التى تقع بين الحين والحين وتسبب الكوارث للانسان . نقصد نوبات الجفاف . وإلى أن نجد العلاج الحاسم على المدى البعيد فإن حدوث كل نوبة يزيد من ضعف تلك المجتمعات فى الأراضى الجافة ، وتصبح به أقل استعدادا لمواجه الضغوط والجهد التى تقع فيه ، أو يقعدها عن مجابهه نوبة أخرى من الكوارث التى لابد من وقوعها .

فجفاف الساحل على سبيل المثال كان قِسمه لظهر الدخل والانتاج لدى الأقطار الستة التى كانت أكثر تأثرا بالجفاف فى المنطقة . لقد فقد مليونا فرد من الرعاة الرحل نصف حيواناتهم ، وفى أسوأ الظروف المحلية جاوزت الخسائر فى هذه الأقطار ٩٠٪ . وأن ما يقرب من ١٥ مليون ريفى انخفض حاصل غلتهم إلى أقل من نصف حاصلاتهم الاعتيادية خلال أغلب سنى المرحلة ما بين ١٩٦٨ ، ١٩٧٢ . وتدهور مستوى المعيشة الذى كان منخفضا فى الأصل . ولم يكن هذا التأثير منعكسا على الفرد أو العائلة فقط بل كان صداه شديدا فى انخفاض مستوى الدخل القومى . ان العواقب الوخيمة التى جاء بها جفاف الساحل يمكن ادراك ابعادها على أساس ما تميزت به من شدة وتأثير .

إنما ينبغى أن نقدر أن هذه الاقطار الست وسكانها كانت حتى قبل عام ١٩٦٨ ، من أفقر بلاد العالم ، وأن أربعة أقطار يضمها الساحل أدرجت ضمن مجموعة الـ ١٣ قطرا التى اعتبرت البلدان تقدما . من ناحية التنمية الاقتصادية ، والانتاج القومى الاجمالى لتلك الاقطار لم يتعد الـ ١٠٠ دولار لكل نسمة فى العام . وأن أهم ما تتصف به مجتمعات الصحارى والأراضى الجافة فى الأقطار النامية هو الفقر المدقع المزمن وانعدام رأس المال ، وهذا يفسر لنا لماذا هم عرضة للدمار بسبب كوارث الجفاف .

ومع تقدم جفاف الساحل تضاءل وتناقص المخزون الغذائى لحد النفاذ . إن المجاعة التى حدثت خلال عام ١٩٧١ شملت وعمت كل المنطقة عند حلول عام ١٩٧٢ . وتدل التقديرات على أن ما يقرب من ١٠٠ر٠٠٠ شخص لاقوا حتفهم وكان أكثرهم من الأطفال ، نتيجة تلك المجاعة والأمراض المرتبطة بها والمصاحبة لها.

إن المجاعة الموسمية والأمراض المتوطنة ضمن حقائق الحياة ووقائعها عند سكان الصحارى والأراضى الجافة فى الأقطار النامية ، حيث تفتقر هذه المجتمعات فى العادة إلى الخدمات الصحية (إن وجدت) . وتتضمن الأوجه الخفية لظاهرة التصحر سوء التغذية وضعف المناعة تجاه الأمراض ، فهى بطبيعتها تقلل قدرة المجتمعات فى الأراضى الجافة وكفاءتها فى التصدى للصعوبات المتتالية . إن سوء التغذية يقوض عزيمة السكان للصمود فى السعى لتحسين أحوالهم . ولهذا يجب مراعاة هذا الأمر كجزء من إجراءات التصدى للزحف الصحراوى .

إن مناطق الرعى التى تأثرت كثيرا بجفاف الساحل قد حدث فيها تدهور كامل لنظم المعيشة ، تولد عنه الهجرة الجماعية إلى المدن وإلى معسكرات اللاجئين التى تقع فى المناطق الجنوبية الأقل تأثرا بالجفاف . فقد فقدت بعض أجزاء فولتا العليا ما يقرب من ٨٠٪ من ساكنيها ، وقد مات العديد منهم كذلك فى أثناء الهجرة ، غير أن أعدادا كبيرة من اللاجئين الرحل كانت رحلتهم موفقة حيث وهبت لهم الحياة ووجدوا الطعام والرعاية الطبية فى المدن التى اتجهوا إليها ، بالإضافة إلى الأجور التى حصلوا عليها نتيجة اشتغالهم فى تلك المدن . وقد أشارت الاحصاءات فى ذلك الوقت بأن النسبة الكبيرة من هؤلاء الرعاة اللاجئين قد عدل عن الرجوع إلى موطنهم السابق . وهذه الحالة التى جاء

بها الجفاف هى ظاهرة جديدة يجب النظر إليها على أنها ثورة اجتماعية .

ومن الجانب الآخر فمن الممكن النظر إلى هذه الهجرة واعتبارها تضخيم عابر ، وقد يكون مؤقتا للهجرات الفصلية أو الدائمة المنتظمة والتى كان يقوم بها هؤلاء الرحل إلى المدن فى السابق . وبالرغم مما أصاب نظام الرعى من المزايا التى تأتت اليه عن طريق فائض الأجور التى تصل من أقاربهم الذين هاجروا للعمل فى المدن ، فإن هذا المجتمع منى بالضعف لأن هذه الهجرات التى كانت تأخذ طريقها إلى المدن كانت قائمة فعلا حتى قبل الجفاف إلى الحد الذى وصل فيه نظام الرعى هذا إلى حالة الركود ، ومثل هذه الانتقالات كانت ثابتة سواء فى سنى الجدب أو سنى الرخاء ، وهذه جميعا دلائل على عدم الاستقرار وعلى قصور عطاء الأرض عن الوفاء باحتياجات السكان . وهذا وضع آخر يجب أن يدخل فى الحسبان عند وضع البرامج العلاجية .

إن جفاف الساحل حرك جهود الاغاثة الدولية بشكل كبير ، ولكن تلك الجهود اصابها القصور ، وكان هذا القصور أشبه بالمؤشر لوجود الضعف الكامن والفائم قبل حدوث أزمة الجفاف ، والذى بقى ولا شك فى غضون الأزمة نفسها . فالمطعم والأدوية لم يتيسر لها أن تصل فى وقتها إلى من كان أكثر حاجة إليها ، خاصة المناطق البعيدة التى تفتقر إلى وسائل النقل . ومما عرقل عمليات الاغاثة أيضا قصور الاجراءات الادارية وظهور العقبات البيروقراطية التى عطلت أعمال الغوث على الصعيد المحلى . وعليه فإنه من الضرورى تفادى مثل هذه الحالات والتغلب عليها فى أى خطة يراد بها اتخاذ الاجراءات المطلوبة لمجابهة الزحف الصحراوى .

كما أن العداء التقليدى بين البدو الرحل وبين المزارعين فى الساحل ، والذى أدى إلى توزيع الغذاء بصورة غير منصفة على اللاجئين ، يشير الاهتمام بتلك التناقضات الحضارية والانحياز السياسى والتى ستلعب دورا فى وضع العراقيل على طريق برامج مقاومة الزحف الصحراوى . إن انعدام وسائل الاتصال والمخاطبة الفعالة بين اللاجئين وبين من ترتب عليهم مساعدتهم كانت اشبه بمؤشر للتنبيه إلى أن نسبة من يعرفون القراءة والكتابة فى الأقطار التى تأثرت بالجفاف كانت منخفضة ، وفى أغلب أقطار الساحل كانت نسبة هؤلاء لا تزيد عن ١٠ ٪ وعليه فإن برنامجا للتعليم يجب أن يرافق

برامج تحسين استغلال الأراضى .

تتباين استجابة النظم البيئية للضغوط المناخية وضغوط استخدام الأرض حسب حساسية هذه النظم البالغة أو القليلة . وهذا التباين يقترح أساسا لتحديد أولوية الأجراءات التى تستهدف التحسين الفيزيقى للأحوال البيئية . وكذلك فإن التباين الموروث فى قدرة المجتمعات التى تقطن الأراضى الجافة ، وهو التباين الذى يظهر فيما يطبقه السكان ، سواء زاد أو قل ، يحدد الاولويات على أسس بشرية . إن اعتبارا كاملا يجب أن يقرر فيما إذا كان اتجاه العون الدولى ينبغى أن يتجه نحو الشعوب التى هى أقل احتمالا ، وأن يكون التحرك الوطنى نحو مجتمعاتها المهددة وأن يكون ذلك الاتجاه إلى المناطق التى تعرضت فيها النظم البيئية للتدهور ، وبطبيعة الحال سيتطابق الأمران فى بعض الحالات . ومع هذا فقد تقرر على أن تكون برامج معالجة مثل هذه المشاكل ذات رؤية واضحة لعلاج بعيد المدى لهذا العجز وليس مجرد إغاثة لصعوبات موقتة .

الظواهر الانسانية والاجتماعية للتصحر :

فى الوقت الذى تصل فيه العواقب الوخيمة للتصحر من النواحى الانسانية والاجتماعية إلى نقطتها الحرجة عند حلول فترات الضغط الزائد ، فإن بقاء تلك العواقب واستمرارها دليل على العجز المزمن فى مجتمعات الأراضى الجافة الهامشية . ومثل هذا العجز قد لا يكون مقتصرا ومتصا بالزحف الصحراوى ولكنه يغطى بشكل أوسع العشائر وأنماط المعيشة فى المناطق الواقعة على أطراف العالم المعاصر ، خاصة فى المناطق البعيده والبيئات التى تتعرض لمخاطر التدهور ، وتلك الحالات التى تعزل فيها التقاليد وعدم المساواة أو اللامبالاة السياسية للنظم البيئة عن المصادر والكفاءات المطلوبة لتحقيق التقدم والتطور .

ومن جملة العواقب الوخيمة الجوع والأمراض والموت المبكر الذى يداهم هذه المجتمعات نتيجة للفشل المستمر فى الحصول على الغلات الزراعية ، أو نتيجة للتدمير الجسيم الذى يقع للمواشى وخاصة لدى تلك المجتمعات التى تتواجد فى الاطراف والحواف حيث لا تفى وسائل النقل بالغرض . إن انتشار الأمراض المتوطنه لهذه المناطق يتأتى من قلة التغذية .وهناك قلة من الأمراض قاصرة على مناطق التصحر فأمراض العين مثل التركوما تكاد تكون واحدة من هذه الأمراض . وان بعضا من الأمراض كالبلهارسيا

يرتبط مع نظم الرى ذات الكفاءة المنخفضة . أما الوهن والهزال فإنه يقود إلى مزيد من عدم الكفاءة وتدور دورته حتى يصبح ذا حركة ذاتية كالحلقة المفرغة .

إن أول مؤشر على زحف الصحراء فى الأقطار الغنية كالولايات المتحدة أو استراليا هو الخسارة فى الدخل . أما فى المجتمعات التى تنتج الكفاف فإن أى خسارة فى الدخل تثير مشاكل حادة يتعرض لها الاساس الفيزيقى للحياة ، وتزداد أهميتها شدة عندما يكون الدخل معتمدا على الحاصلات الزراعية أو المواشى . إن خسارة الدخل تعتبر من المشاكل الثابتة والملازمة لمجتمعات الأراضى الهامشية وهناك وسائل متعددة لمواجهة ذلك مثل المشاركة فى مصادر الثروة أو الهجرة الموسمية إلى الخارج.

إن امتداد أو استمرار فترة الجفاف قد يحدث تدهورا مؤقتا فى أسس المعيشة وفى مجتمعات الرحل ، تتمثل هذه المرحلة بالتوقف عن التجول مع الاستقرار فى الأراضى الزراعية . وإن الهجرة الخارجية إلى المدن سواء كانت موسميه أو دائمة تنعكس زيادتها على الرحل ، وكذلك اولئك الذين يزاولون أعمال الزراعة التقليدية ، حيث يوفر هذا معونات عاجلة عن طريق الأجور المحوله . ولكن الحالة قد تصل ببساطة إلى الحد الذى تفتقر فيه أنظمة العيش إلى الأيدى العاملة ، مما يزيد من تدهور هذه الأنظمة . والمجتمعات التقليدية برغم مالديها من الوسائل الموروثة لمجابهة مثل هذه المشاكل والتغلب عليها ، لا يصمد بعضها تجاه المشاكل ، وخاصة اولئك الذين تحولوا إلى حياة أكثر تخصصا فى التجارة أو التكنولوجيا ، اولئك الذين انفصمت لديهم الروابط الاجتماعية . وفى مراحل التدهور المؤقت أو الاولى فى كارثة الجفاف الساحل كانت حال مجتمعات الرعى المتنقل أفضل من حال المزارعين المستقرين . وفى الدول الغنية يكون تخفيف أو معادلة تدهور أنظمة العيش فى مثل هذه المرحلة على شكل اعانات جفاف حكومية ، أو على شكل قروض . وقد ينشأ عن تزايد الديون أن يترك الأراضى الضعيفة أصحابها وقد يحدث أن يتناقص عدد السكان فى الريف بشكل انتقائى ، بينما المدن المحلية القائمة على الخدمات والصناعات الزراعية تعانى الهبوط الاقتصادى .

وقد تتقدم هذه العملية وتتطور حتى ينهار نظام العيش كلية ، وعندما تحل هذه المرحلة سيقع العبء على المجتمعات ذات البيئة الأكثر تعرضا والأقل قدرة على التحول

إلى طريقة جديدة فى المعيشة . وبالنسبة لحالة الجفاف فى الساحل فإن أكثر المتضررين فى تلك المرحلة هم الرعاة الرحل ، حيث تعرضت بقاع كثيره إلى هجرة جماعية . وكما سبقت الاشارة ، فإن الدلائل كانت تشير إلى أن الكثيرين من هؤلاء اللاجئين قد تركوا طريقتهم السابقة فى المعيشة ولم يعودوا إليها .

وبالإضافة إلى الصعوبات الماديه والفيزيقية المتضمنه فإن مثل هذا الجيشان اتى بضغوط نفسيه وعاطفيه حاده . ومن كانت الضربة عليهم شديدة قد يستكينون إلى الجمود والاكتئاب المتولد عما أحسوا به من فقدانهم لمركزهم ومنزلتهم . إن الكوارث الاجتماعية على هذا النمط من الجسامة هى أكثر ما تتميز به مجتمعات الحواف التى تعيش فى أراضى الهوامش . أما المجتمعات الصناعية فلديها الفائض من المصادر الذى يمكنها من أن تتلم به حدة تأثير هذه الكوارث .